النقد الأدبى
عند العرب

رأينا أن النقد الأدبى فى فرنسا ابتدأ وسار سيرًا تدريجيًا، إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن، وكانت أطواره ظاهرة ظهورًا تامًا، وهو تابع فى طريقه وسيره قانون الارتقاء، وأنه لم ينبت فى بلاده، ولم ينشأ بين أهله، بل جاء من الاطلاع على كتب اليونان القديمة، وعلى الحركة الأدبية أيام النهضة فى إيطاليا، وأنه أوجد صلة بين النقاد أنفسهم وبين آثارهم فى كتاباتهم.

أما النقد الأدبى عند العرب فهو بعيد عن كل فكرة أجنبية، وعن كل أثر خارجى. وليس الغرض منه تقويم حركة العقول والأفكار، بل شرح الشعر العربى، وتقرير طريقة الشعر الجاهلى لتكون نموذجًا ومنهجًا للشعراء. وقد سار النقاد فى هذا الطريق بعزم صادق، وكلهم أنصار الطريقة العربية الأولى، وساعدهم على بلوغهم ما أرادوا، مزجهم الأدب بالدين، فتمكنت الطريقة العربية القديمة، وطريقة الخيال والتصور عند العرب، من الاستيلاء على أفكار الشعراء والكتاب.

ومع أن اللغة العربية اتسعت بما دخلها من الشعر والنثر، ونتائج العقول والقرائح الكثيرة، فإن النقاد لم يتحولوا عن اتباع القديم، ولم يرق الأدب الرقى الذى كان يكون له، ولا سيما الشعر الذى هو أظهر مزايا البلاغة العربية، بل لا يزال الشعر القديم إلى الآن أرقى أنواع بلاغة العرب، وأصحها وأمتع ما فيها. ذلك لأن النقاد وأئمة اللغة والأدب قصروا العقول

على تقليد الشعر القديم، فى الطريقة والأسلوب والصناعة، وحتى فى الأفكار والموضوعات.

كان العربى يتأثر بالكلام وضروب البلاغة، وساعدته فطرته على سهولة التعبير، ونبغ فى هذا النوع من الشعر الذى دعته الحاجة إليه، ولم يتجه فكره إلى الخروج عن الدائرة التى كان يعيش فيها. ولم يكد يفهم الناس من بلاغة الشاعر وبراعته إلا ذما مقذعًا، ومديحًا يرفع الممدوح ويجله. فدخل المدح والذم فى حياة البدوى، وامتزج بنفسه امتزاجًا. وكان تبجيل الشاعر لا يقل عن تبجيل أعظم رجل له أعظم أثر فى الحياة. وكان النظر إلى الشعر كالنظر لأكبر أعمال الإنسان فى الحياة. لذلك فاقت العناية بالشعر ونقده كل عناية. ولقد كان حكمهم على الشعر لا من جهة أنه أثر من آثار العقول والأفكار، بل لأنه من الأشياء الحيوية للإنسان التى تساعده على فهم حياته.

وكأنهم لم يفهموا الشعر إلا بالنسبة لأثره فى الخارج، ولم يتذوقوه لما به من الأفكار أو من حيث أنه فن من فنون الجمال، بل لأنه يرفع من شأن العشيرة ويحط من قدر العدو. وعلى ذلك لم تكن البلاغة معتبرة وسيلة من وسائل تكميل النفوس. ومظهرًا من مظاهر الفنون، بقدر ما كانت معتبرة آلة من آلات المدح أو الذم، أو مظهرًا من مظاهر ميول الشخص وأهوائه.

ومن هنا كانت البذرة الأولى من بذور الشعر الوجدانى الشخصى فى بلاغة العرب التى ملكت عقول الشعراء وخيالاتهم وصناعاتهم. ومن هنا أيضًا كان سبب جفاف النقد. فقد اقتصر على الملاحظة بدون أن يغير من حركة الأدب.

ذلك لأن حركة النقد عند العرب كانت مثل حركة الأدب سواء بسواء، ليست نتيجة كد الأفهام وإعمال الفكر. فلم يكن هذا النقد من دواعى التقدم والانتقال فى بلاغة العرب. وإذ كان الشعر القديم الجاهلى نموذج الشعر العربى فى جميع أزمنته، كانت الحركة الشعرية ضربًا من التقليد المحض فى الألفاظ والديباجة، وهذا التقليد هو الذى قاد عقول الكتاب والشعراء وكان مقياسًا لها. وذلك فى جملته هو مثال النقد الأدبى فى مجموعه وعليه بنيت كل فكرة أدبية. ولم يحاول أحد من النقاد الانحراف عن هذا الطريق، فلم يحرر الشعر من الطريقة الأولى، ولم يسلك مسلكًا آخر لا من جهة الأفكار، ولا من جهة الصناعة. فوقف النقد أيضًا فى طريق واحد، وثبت على حال واحدة.

من أجل ذلك كان النقد الأدبى عند العرب فهم الشعر وتأويله على الطريقة القديمة التى جعلت الشعر الجاهلى نموذجًا لها. فلم يكن له من القوة من يمكنه من تغيير سير الأفكار، ولا من تقويم حركة العقول.

ولقد يتساءل الإنسان: أكان يكون تقليد الشعر الجاهلى سببًا فى وقوف حركة النقد، والأدب عند العرب؟ أجل. فإن العرب منذ ظهور الشعر فيهم، ظنوا أنهم ابتدأوا فى ذلك بطريقة كاملة، وان هذا كل ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من صناعة الكلام، وأنهم طرقوا كل موضوع، فوقفوا عند ذلك. بل حافظوا على عدم التوسع، أو الخروج من عاداتهم فى صناعة الكلام، وامتلأت نفوسهم بهذا الرأى، فتوارثها الأجيال منهم. وليس تقليد القدماء عند العرب مثل تقليد الفرنسيين لليونان والرومان، لأن تقليد هؤلاء كان من الأسباب التى حملت الفرنسيين على الاطلاع على آداب أخرى غير آدابهم. فحركت فيهم الميل إلى البحث والموازنة، ووسعت فيهم دائرة النقد. أما

العرب فقد أبقوا النقد على ما هو ثابت فى أفكارهم، وتابع لآرائهم، بدون أى اقتباس آخر، وبدون أن يرجعوا إلى شىء سوى العمل على تأييد آرائهم. وعلى هذا كانت كل قواعد اللغة والبلاغة. فكان مثلهم كمثل صانع يتبع مناهج صنعته، ونماذج أعماله، وهو معتقد بدقة عمله، فلا يرغب فى أن يعرف أثرًا آخر ينسج على منواله. هذا مثل النقد الأدبى عند العرب. ومثل هذا النقد المحدودة قواعده وطرفه، كان من شأنه أن ينتهى إلى نوع من المباحث اللغوية، والقواعد النحوية. نعم وقد كان ذلك، فقد عنى النقاد عناية تامة بالمباحث اللغوية، والقضايا اللفظية، ولم يصل النقد إلى حمل الشعراء على النظر فى بعض المذاهب الكتابية الأخرى التى ظهرت عند غيرهم من الأمم، ولا إلى البحث فى الشعر من حيث أنه باعث من بواعث الأفكار، ومظهر من مظاهر الإنسانية، بل اقتصروا على مباحث دقيقة فى الأساليب، وضروب التركيب، بدون نظر إلى ما يرقى الأفكار، وإلى ما كان يمكن أن يكون سببًا فى رقى الشعر وانتقاله من طور إلى طور. وكان النقاد إذا بحثوا فى المعنى بحثوا فيه من حيث أنه مظهر من مظاهر براعة الكاتب أو الشاعر، أو من حيث الخيال والتشبيه والاستعارة، وقالوا: "من لوازم الشعر أن يشتمل كل بيت على معنى تام يصح أن ينفرد به" فصار نقد القصيدة نقدًا لكل بيت على حدة. ومثل هذا لا يمكن أن ينتج فى النقد إلا آراء متقطعة، أو أفكارًا مفككة عن الشاعر وعن طريقته، إذ لا تظهر براعة الكاتب أو الشاعر إلا فى اتصال أفكاره بعضها ببعض، ولا يمكن أن تظهر قوة النقد إلا فى بحث وتحليل متسلسلين. بحيث يقود الفكر إلى فكر آخر. ويتصل الرأى بالرأى. وإلا كان مثل ذلك مثل باب مصنوع مفكك قطعًا قطعًا، تظهر فيه براعة النجار، ولا يمكن أن تحكم الناظر على صناعته إلا حكمًا ناقصًا.

وإذا بحثنا عن تاريخ النقد الأدبى عند العرب وجـدناه ابتدأ مع الشعر، وسار مـعه وظهر بظهـوره، فإن المجتـمعات والمجـالس الكثيـرة، التى كانت للشعر والشعراء فيها المنزلة الأولى، ربما كـانت أكثر ما تكون فى التفضيل بين الشعراء، والحكم على أحسن الشـعر وأفضله، فقد كانوا يفتـخرون بالشعراء المجيدين ويميلون كل الميل إلى حفظ الشعر الجيد وسماعه، ويضربون به المثل فى الحكم والعظة وفنون الجمال، إذ لم يكـن لديهم من الفنون غير هذا النوع من جمال القول، وفصاحة اللسـان، ودقة البيان، ولذلك عظم اهتمامهم به، واتجهـت هممـهم إلى الإكثـار منه، فكانت لهم آراء فى الشـعر والشـعراء، ومذاهب فى تفضيل بعضهم على بعض تناقلها السلف من بعدهم، وأصبحت شيئًا من أصـول النقد فى بلاغة العرب. ولكن أكثر هذه الآراء فـردية، مبنية إمـا على الذوق الخـالص والميل الشـخصى، وإمـا على الأهواء والأغـراض الخاصة، وما كان أسهل على أحدهم أن يعجبه البيت فيقول: هذا والله أشعر ما قالته العرب. ثم يسمع بيتًا آخر لشاعر آخر، فيقول: هذا أشعر الناس.

مثل هذه الآراء لا يصح أن تعد من النقد الصحيح ولو كانت أراء لأكبر الشعـراء أو الأدباء، لأنها مبنيـة على الميول الصرفـة والأهواء الشخصـية، لا على مذهب ثابت، ولا على رأى صحـيح، فلا يصح أن يكون هذا من النقد فى شىء.

كذلك ابتدأ النقد عن العـرب. وكان لابد أن يكون فى أول أمره، على هذه الحال، ولكنه انتهى أيضًا بنحو ذلك أو ما يقرب من هذا. ولا يمكننا أن نجعل هذه الآراء الـنقدية داخلة فى المذهب النقـدى المعروف بمذهب "التـأثير والانفعال" لأن هذا المـذهب مبنى على ذوق سليم، تهذيب بالتربيـة والتعليم والقراءة الكثيرة، لأنواع بلاغات الأمم المختلفة، والموازنة بينها.

لهذا كان النقد الأدبى ليس له تاريخ فى بلاغة العرب (ولابد من الفرق بين النقد الأدبى الذى شرحنا شيئًا منه عند الأمم الأخرى، وبين علوم البلاغة عند العرب)، ولم يبحث فيه باحث بحثًا خاصًا يبين المذاهب المختلفة التى كانت تكون هداية الكتاب والشعراء وقدوة البلغاء. فمن العبث أن يبحث الإنسان عن أطوار النقد، أو عن المذاهب المختلفة فيه عند العرب، لأنه من الفنون التى لم تنضج فى الآداب العربية. ويخيل إلينا أن أدباء العرب لم يفهموا النقد بالطريقة التى يفهمها أدباء اليوم: من "تحليل" الأفكار والآراء، وصلة الكتابة بالكتاب أنفسهم، والمؤثرات الأخرى، وأنهم لم يعتبروا أن البلاغة مظهر من مظاهر الاجتماع. وغير ذلك من الأسباب التى دعت إلى رقى الأدب الحديث.

ونعود فنقول: إن كل ما وجد من النقد هو أفكار فردية، وآراء لبعض كبار الأدباء، منثورة مبعثرة فى كتب الأدب والأخبار، وفى طبقات الشعراء وتراجمهم. (ومن أراد أن يطلع على ذلك فليراجع مقدمة "الشعر والشعراء". لابن قتيبة، ومقدمة "جمهرة أشعار العرب" لابن أبى الخطاب، وترجمة النابغة الذبيانى فى الأغانى، وغيره من فطاحل الشعراء، كجرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم).

***

إذا بحثنا عن هذه الآراء فى النقد وجدناه ناشئة من طبيعة العربى ومزاجه. لأن العربى شجاع، شديد التأثر بالكلام، سريع الغضب، لا يحب السكون كثيرًا، ولا يميل إلى الهدوء، يهيج لأقل سبب، ويغضب لأدنى مناسبة، شريف النفس، لا يقبل الضيم، يضحى بكل شىء فى الدفاع عن

شرفـه، أكثر أخلاقـه ظهوراً الشهـامة وحب الانتقـام، كانت تكفيـه الكلمة يسمعـها فتهيج من نفسـه، وتثير فيها حـب النزال وتؤجج حربًا عوانا. على هذه الأخلاق وعلى هذا الشعور، وعلى هذه الفطرة المتـأججة كان مظهر آراء العـربى فى كل مـا يفهم وفى كل مـا يدرك، فظهـر ذلك فى نقـده الشعـر والشـعراء، وتذوقـه الكلام البليغ، فـكان أحسن الكلام لـديه أكثـره أثرًا فى النفس وهياجًـا للعواطف، وأحسن الشـعر ما احتـوى على عبارات ضخـمة وألفاظ تستولى على السامعين، وتملك من نفوسهم، وتنال منها، بقطع النظر عن كل شىء آخـر. من أجل ذلك كـان للألفـاظ المنـزلة الأولى فى الكلام، وكان لـها المكان الأول فى نفس السـامع، وربما كان ذلك من البـواعث على استقلال كل بيت من الشعر بمعنى تام، وعلى أنه كان يكفى سماع بيت واحد بهز النفس، ويشغل الفكر، ليحكم الشاعر بأن هذا أفضل بيت قالته العرب. لهذا أيضًا قلما اجتمع الناس على شاعر واحد يفضلونه[1].

***

وبعد فإما أن يكون الـنقد عبارة عن قضايا الغرض منـها إرشاد الكتاب والشعـراء إلى الطريقة المثلى فى الأسـاليب وصناعة الكلام، وهـذا هو النقد البيـانى - نسبة إلى علوم البـيان التى هى علوم البـلاغة - ويدخل تحت هذا القسم البحث فى الألفاظ والأساليب، وما بها من الاسـتعارة والتشبيه والمجاز

(١) قال ابن رشـيق فى العمدة: والشعـراء أكثر من أن يحـاط بهم عددًا، منهم مشاهيـر قد طارت أسماؤهم وكـثر ذكرهم، حتى غلبوا على سائر من كـان فى أزمانهم، ولكل أحد منهم طائفة تفضله وتـتعصب له، ولذلك قلما يجتـمع على واحد إلا ما روى عن النبى ﷺ فى امـرئ القيس: أنه أشـعر الشـعراء وقـائدهم إلى النار، يعنى شعـراء الجاهلـية المشركين "جـ أول ص ٥٩".

والمحسنات البديعية. وهذا النوع من النقد أكثر ما يكون شيوعًا فى النقد الأدبى عند العرب.

وإما أن يكون النقد عبارة عن البحث عما فى الكتابة والشعر من الأفكار والآراء، واختيار الموضوعات واستيعابها ودقة الملاحظة فى المعانى الصحيحة الاجتماعية، والغرض الذى يعود على القراء من ذلك، ثم "تحليل" النفوس التى ذكرت أثناء الكلام - كما فى القصص التى يقصد منها تصوير الطبائع ورسم النفوس الإنسانية - ثم ترتيب الكلام ومعرفة طريقة الكاتب فى الفهم والإدراك والتصوير، ومقدار ما عنده من الحذق فى الصناعة، وعلى الجملة كل ما له صلة بنفسه وكتاباته. وهذا هو النقد "التحليلى" وهو الذى يكشف أسرار العقول، ويوضح المؤلفات وما بها، ويظهر قيمتها الفنية، ويبين منزلتها من العلوم والفنون. وأكثر ما يكون هذا النقد فى الآداب الاجتماعية والفلسفية المملوءة بالآراء والأفكار وأشكال الناس وصور الحياة، وهو أقل ما يكون ظهورًا فى الوصف والوجدانيات. وبدون هذا النقد لا يفهم العقل السليم من العقل السقيم، ولا الكلام الصحيح من الخطأ. فالنقد "التحليلى" يعتبر البلاغات نتيجة من نتائج العقول والقرائح، ويبحث عن الصلة بين الكتاب والشعراء وبين حركاتهم العقلية، والمؤثرات التى دعت إلى ذلك. وذلك لا يظهر كثيرًا فى الشعر الوجدانى المبنى على الخيال الصرف[1].

---

(١) وإلا فماذا يمكن أن يفهم الإنسان من الصلة بين الشاعر وشعره وأثر الاجتماع فى قول من قال:

نحن قوم تذيبنا الأعين النـ ـجل على أننا نذيب الحديدا =

أما أكبر مظاهر النقد الأدبى عند العربى فهى علوم البلاغة. ولا يكاد يوجد كتاب فى النقد إلا وكان اهتمامه بشرح ما فى الكلام من أنواع البيان والبديع أشد اهتمام، ولم يفرق الأدباء بين علوم البلاغة وبين النقد، فإن كتاب قدامة بن جعفر "نقد الشعر" كتاب فى علوم البلاغة لا غير، على أنه معدود من كتب النقد الأدبى. وكتاب ابن رشيق "العمدة فى نقد الشعر وصناعته" يدل على أن النقد كان لفظًا مبهمًا غامضًا لم يحدد معناه بعد، أو أنه لفظ عام كلفظ الأدب نفسه، فقد احتوى هذا الكتاب على كثير من الموضوعات المختلفة من أدب وسير وعلوم البلاغة، واشتمل على ذكر أيام العرب، وفيه قسم كبير فى علم البيان والبديع. على أن هذا الكتاب من الكتب المعتبرة فى النقد، وهو على رأى ابن خلدون "أوعى وأجمع كتاب فى النقد لم يساوه قبله ولا بعده كتاب آخر" مع أننا نرى أن كل ما فيه من النقد هو كلام عام، لا يضبط طريقة ولا يؤيد مذهبًا (من هذا ما رواه ابن رشيق فى أغراض الشعر وصنوفه راجع ص ٩٢ جـ ٢) نرى من هذا أن أدباء العرب مزجوا النقد بعلوم البلاغة، بل لم يعرفوا من النقد غير علوم البلاغة[١].

= وترانا لدى الكريهة أحرا رًا وفى السلم للحسان عبيدا

مثل هذه البلاغة لا تنقد إلا نقدًا بيانيًا، مبنيًا على تحليل اللفظ وشرح الاستعارة والتشبيه، ومثل هذا النقد يحمل الشعراء على التكلف والاهتمام باللفظ، إذا خير أنواع الشعر عند هؤلاء ما اشتمل على الاستعارة والتشبيه، كقول الشاعر:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فقد اهتم علماء "البلاغة" بهذا البيت، واختلفت آراؤهم - راجع مقدمة "الشعر والشعراء" وكتاب "دلائل الإعجاز".

(١) ذلك إلى ما هو مشهور عندهم من النقد اللغوى، والنقد الذى مرجعه قواعد النحو والصرف؛ وإلى الآراء الكثيرة المنتشرة فى كتب الأعراب وتراجم الشعراء والكتاب. وإذا كانت هناك أطوار للنقد، فإنما هى فى النقد البيانى، أى فى الآراء المختلفة فى تعريف=

مع هذا فقد وجد من بين النقاد من كانت آراؤه صحيحة نافعة، وحام حول هذه الطرق الجديدة. ولو أن هذا النوع من النقد سار تدريجيًا لوصل إلى ما وصل إليه النقد البيانى من المكانة والتأثير فى الأدب. فقد ابتدأ هؤلاء النقاد أن يعرفوا النقد الصحيح، وأن تكون لهم آراء خاصة، وذهبوا إلى نوع من النقد "التحليلى" ولولا أنهم كانوا لا يميلون فى جملة آرائهم إلى تقليد القديم وإلى التقيد بعلوم البيان، لخطا النقد خطوة واسعة ولرقت الآداب رقيًا. هذا النوع من النقد يظهر فى بعض الكتب الخاصة ببعض الشعراء والموازنة بين بعضهم بعضًا. ومن أشهر هؤلاء النقاد القاضى عبد العزيز الجرجانى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) فقد جاء فى كتابه "الوساطة بين المتنبى وخصومه" (طبع فى صيدا بالشام سنة ١٣٣١) ما دل على براعته فى الأدب العربى، وبشرنا بشىء جديد فى النقد. وهو من أحسن وأمتع كتب النقد فى بلاغة العرب، لما فيه من المنافع الجمة المبنية على ذكاء المؤلف نفسه، واستعداده الخاص فى النقد، ودرجة فهم الكلام، "وتحليله" وقد احتوى هذا الكتاب على كل ما يصح أن يخطر ببال أديب فى ذلك العصر، وما يمكن أن يفيد القارئ فائدة إجمالية صحيحة عن بلاغة العرب وصناعة الشعر، ومعرفة الآراء الشهيرة فيه، ومثل كتاب الوساطة فى موضوعه وأسلوبه النقدى كتاب "إعجاز القرآن" للقاضى الباقلانى (المتوفى سنة ٤١٣) وهو أيضًا من أفضل كتب النقد ومن أوضح الأدلة على أن النقد "التحليلى" أخذ يتسرب إلى

=البلاغة والفصاحة، ومباحث اللفظ والمعنى، وتفضيل أحدهما على الآخر، ثم فيما جاء به عبد القاهر الجرجانى من مذهبه فى تعريف البلاغة والفصاحة، ثم ما زيد من أنواع البديع منذ مسلم بن الوليد إلى السكاكى؛ فهذه يصح أن تكون من الأطوار التى تخطتها علوم البلاغة. ولكن علوم البلاغة غير فن النقد.

عقول الأدباء. فقد حلل الباقلانى كثيرًا من آيات القرآن الكريم تحليلا بديعًا لا يكاد يوجد فى غيره، ولم يعتمد فى ذلك على قواعد البلاغة فقط، بل قصد إلى تحليل المعانى نفسها. وهو من أصح الكتب التى يمكن أن تتخذ نموذجًا للنقد التحليلى. ولولا أنه خاص بالقرآن لكان نافعًا فى نشر هذه الطريقة التحليلية. على أن الباقلانى لم يخل من الغموض فى كلامه واتباع الألفاظ العامة.

ولم يظهر هذا النوع من النقد فى بلاغة العرب ظهور النقد البيانى لقلة أتباعه، ولأن نفوس الأدباء كانت تميل إلى فهم الأساليب وشرح الألفاظ أكثر منها إلى غيره، ووجدت غير هذه الكتب كتب أخرى كثيرة، أكثرها لا يخرج عما ذكره من الطرق المعروفة. وجملة القول أن النقد الأدبى لم ينضج عند العرب، ولم يميز من علوم البلاغة.

***